

«الصدق» دعامة أساسية في بناء المجتمع



يصنّف الصدق بين الفضائل الخلقية التي تشکّل عالماً هاماً في زرع الثقة بين الناس مما يتصرّ وحدة مجتمعية، وتماسكاً بين أعضاء الجماعة لا خلل فيه. كما أنّ الصدق يعبر عن استقامة الإنسان الصادق، وشجاعته وإتزانه لأنّ الصدق يجمع خصالاً محمودة قلّما تكون في غيره.

إنّ الإنسان المستخلف في الأرض فطر على الصدق، ولذا ترى فطرته تتناهى مع الكذب الذي هو فساد يصيب نفس المرء، وجنّب متناهٍ من شخص خاف الناس فكذب، ولم يخف الله تعالى وهو الأولى أن تخشاه. إنّ العقل السليم يرى بأنّ "الفطرة المستقيمة التي لم يلحقها دنس تأبى على صاحبها إلا أن يكون صادقاً في ما يقول ويفعل، وذلك لأنّ في الكذب جرأة على الله، وخوفاً من العبد الذي لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضراً".

والصدق نقىض الكذب، ونقول: صدقه الحديث؛ أي أبناءه بالصدق. والصدق (بفتح الصاد) الصلب من الرماح وغيرها. وكذلك رمح صدق: رمح مستوى. ويُقال الصدق من الرجال: الصلب المستوى من الرجال والكامل من كل شيء. وصدق الرجل في القتال: تصلّب فيه واشتد ووفاه حقوه. ولذا بات الصدق تعبيراً عن الجرأة والثبات.

ومما يؤكد قيمة الصدق في الحياة، أنّ الله تعالى قد وصف القرآن الكريم - وهو الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ولا يعتريه التغيير - بالصدق، وجاء ذلك في قوله تعالى: (الْإِذْ يَأْتِيَ جَاءَ بِالصَّدْقِ وَمَدْقُوقٌ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ) (الزمر/ 33)، والأخيار من عباد الله الصادقين في عبادتهم وأعمالهم المخلصين في نواياهم أعد لهم سبحانه مقعداً في الجنة وصفه بأذنه مقدر صدق في الآية الكريمة: (فِي مَقْعَدٍ صَدُوقٍ عَنْدَ مَلِيكٍ مُّقْتَدَرٍ) (القمر/ 55)، هنا مدح للمكان المخصص في الجنة لأهل الصدق، وهو مجلس حق لا لغو فيه ولا تأثير.

وأمر الله تعالى عباده المخلصين أن يدرجو أنفسهم في صفوف الصادقين في الآية الكريمة: (يَا أَيُّهَا الْإِذْنَينَ آمَدُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُوْنُوا مَعَ الصَّادِقِينَ) (التوبه/ 119). والأمر هنا للأتقياء أن يكونوا مع الصادقين في الإيمان والعمود أو الصدق في القول والعمل وطاعة الله، فالصدق يجعل الإنسان مستقيماً ويعده الله تعالى.

إنَّ الصدق الذي يعدُّ واحداً من القيم الخلقية الإسلامية الهامة يشكّل دعامة في بناء مجتمع صالح إلا أنَّه لا يكون صدق في القول فحسب بل الصدق أعمٌ من ذلك، " وإنَّ ما يكون في صدق اللسان إذا تحدث يكون في النية التي في القلب، ثمَّ في العزم والوفاء بما عقد النية عليه، ثمَّ في العمل هذا وذاك كلهُ".

والصدق قرين الحق لأنَّ الصدق يكون ما في الذهن منه مطابقاً لما في الخارج، والحق هو الذي يكون ما في الخارج منه مطابقاً لما في الذهن. ولأنَّ الإسلام هو الهدي ودين الحق الذي جاء به محمَّد (ص) لذلك حثَّ على الصدق بمعناه الواسع الذي يكون فيه المرء دائم التصديق كثير الصدق، فيصدِّق قوله بالعمل مما يجعله مستحقةً للقب صدِّيق، وفي الحديث النبوي الشريف: "إنَّ الصدق يهدي إلى البر، وإنَّ البر يهدي إلى الجنَّة، وإنَّ الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صدِّيقاً. وإنَّ الكذب يهدي إلى الفجور وإنَّ الفجور يهدي إلى النار، وإنَّ الرجل ليكذب حتى يُكتب عند الله كذِّاباً".

والصادق يق هو الذي لم يدع شيئاً مما أظهره باللسان إلا حقّقه بقلبه وعمله. والصادق يق لقب لا يُعطى إلا لمن كان من الأخيار أصحاب العزم الذين لا يخافون في الله لومة لائم لا من أغراض الدنيا ولا من أهلها. لا بل الصادق يق هو الدائم الصدق الذي يصدق حتى في الموضوع الذي لا ينجيه منه إلا الكذب. ولهذا قال أهل الحقيقة: الصدق هو قول الحق في مواطن الهاlek.

ومن استحقوا هذا اللقب يوسف (ع) لصدق التزامه، وصدق أمانته، ولقد جاء فيه قوله تعالى: (يُوسُفُ أَيّْهَا الصَّادِقُ يَقُّ أَفْتَنَـا فِي سَيْـعٍ بَـقَرَاتٍ سِـمَانٍ يَـأْكُـلُـهُـنـ سـيـعـ عـجـافـ وـأـسـبـعـ سـنـبـلـاتـ خـضـرـ وـأـخـرـ يـمـاـبـسـاتـ لـعـلـيـ أـرـجـعـ إـلـىـ النـاسـ لـعـلـهـمـ يـعـلـمـونـ) (يوسف/46).

إنَّ الصدق يولد انسجاماً بين ما في القلب والعقل، وبين ما يظهر على اللسان وبين ما يمارسه المرء من الأفعال، مما يتصرَّ طمأنينة عند المصدق تجعل خطاه متزنة، وغرسه مثمرة. أما الكذب وهو إظهار غير ما يضمُّ المرء، أو ممارسة عمل مخالف للقول فهو سبيل إلى الشكوك والريب مما يجعل الكاذب مضطرباً مزعزع الثقة بنفسه وبغيره. في هذا المفهوم كان الحديث النبوي الشريف: "عن محمَّد الحسن بن عليّ بن أبي طالب (ع) قال: حفظت عن رسول الله (ص): دع ما يربِّيك إلى ما لا يربِّيك، فإنَّ الصدق طمأنينة والكذب ريبة".

إنَّ ما يدفعنا للتركيز على أهمية الصدق الحال العامة التي تسود مجتمعاتنا بتأثير المفاهيم التغريبية التي تقوم على المذهب المكيافييلي الخطير الذي يبيح الرياء والحييلة، ويفتح الباب أمام كلِّ الوسائل والأساليب تحقيقاً للغرض المطلوب على قاعدة: "الغاية تبرُّر الواسطة".

إنَّا نرى أناساً كثيرين تدفعهم الأنانية والمصالح الخاصة إلى التخلِّي عن الحقيقة ومعاداتها، والأسوأ من ذلك أن نفراً غير قليل يعدُّ الكذب والرياء من أجل الحصول على مكاسبه الشخصية لوناً من ألوان المهارة والخدق، فبما عليهم أية مهارة هذه؟ وإذا كنا سنأخذ بهذا المذهب مما يجعل الكذب سمة في مجتمعٍ ما، فهل سيؤدي ذلك إلى التآخي والتواطُّع بين أفراد المجتمع، أم أنَّ ذلك سيكون معهلاً هدم لروابط الجماعة ودعائهما؟

الكذب بلا نقاش خلق سوء وباب للإفساد العام، وللانهيار الاجتماعي، وهو مدعاة لإضعاف ثقة الناس ببعضهم، وسبيل لتباغضهم وتناقرهم، ولذلك جاء في القرآن الكريم وعيد وتهديد للكذب أبين، من ذلك قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ) (غافر/28)، وفي آية أخرى: (وَيُلْ لِكُلْ أَفْـاكـ أـثـيمـ) (الجاثية/7).

أمَّا الصدق ففيه وحدة المجتمع وخلاصه فإذا "كان اللسان صادق اللهجة، أميناً" في ترجمة خوالج النفس وأغراضها، أدى رسالة التفاهم والتواطُّع، وكان رائد خير، ورسول محبة وسلام. وإن كان متصفاً بالخداع والتزوير، وخيانة الترجمة والإعراب (الإفصاح)، غداً رائد شرٍّ، ومدعاة تناكر وتباغض بين أفراد المجتمع، ومعهلاً هدم في كيانه.

وإذا ما عدنا بالذاكرة إلى مجتمع الإسلام الأوَّل نرى أنَّ من أسباب قوته الرئيسية الصدق الذي اقتدى به أبناء ذلك المجتمع بالنبي (ص) الذي اشتهر من قبل البعثة الرسالية بلقب الصادق الأمين. وبعد ذلك جاءت النصوص الشرعية تحضُّ على الصدق، وتنفيرُ من الكذب وتحذير من عواقبه، وما ذلك إلا لأنَّ "الاستمساك بالصدق في كلِّ شأن، وتحرِّيه في كلِّ قضية، والمصير إليه في كلِّ حكم، دعامة ركنية في خلق المسلم، وصيغة ثابتة في سلوكه. وكذلك كان بناء المجتمع في الإسلام قائماً على محاربة الظنون

ونبذ الإشاعات واطّراح الريب، فإنّ الحقيقة الراسخة وحدها هي التي يجب أن تظهر وتغلب، وأن تعتمد في إقرار العلاقات المختلفة".

ويجب أن يكون بـ"نـا" بأنّ اعتماد الصدق لا يجوز أن يكون موسمياً أو طرفيماً، أو مرتبطاً بالحالة التي تكون فيها، وإنما يجب أن يكون منها جـاً يشمل النـيـة والقول والعمل، لأنّ من تعوّد الكذب في مسألة أو طرف قد تفسد طويته فتنطبق عليه القاعدة التربوية التي أجملها المتنبي في شعره قائلاً: "لـكـ امرء من دهره ما تعوّدا".

ويدخل في الباب نفسه أنّ خداع الأهل لابنهم الصغير فيه إثم، وهو منهج تربوي خاطئ لأنّه ينمّي عادة الكذب فيه. والكذب في الإسلام محظوظ حتى لو كان في المزاج والتهريج، وقد جاء في الحديث النبوى الشريف: "ويل للذى يحدّث فى كذب ليصحك به القوم، ويل له، ويل له".

قد يحتاج عليك أحد الناس قائلاً: وما يضرّ أن تعطي من طرف اللسان حلاوة، فالظروف معيبة ونحن نسأير وقناعاتنا ثابتة؟. إنها حجة ساقطة لأنّ من رضي بالخداع أمام الحالات الصعبة سيستسهل ذلك في غيرها من الظروف، وقد يعتاد الكذب. والمطلوب منمن لا يستطيع مواجهة الأمور بشجاعة وصدق حتى لو كان في موقع ال�لاك أن يتلزم ما جاء في الحديث النبوى: "من آمن بما في اليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت".

فمن واجب المرء إما أن يصدق ويتحرّى المدقق حتى يعود ذلك بالنفع على الجماعة والفرد، ويتحول صلاحاً، ويولّد ثقة تنسج وحدة متينة لأبناء المجتمع، وإلا فالأولى أن يصمت حتى لا يكون ممن كبر مقتـالـ لـأـفـعـالـهـمـ لـأـنـهـمـ يـنـاـفـقـوـنـ غـيـرـ مـاـ يـمـارـسـونـ وـيـسـلـكـوـنـ، وـفـيـ هـؤـلـاءـ جـاءـ قـوـلـ إـنـ عـالـىـ: (يـاـ إـيـّـهـاـ الـَّذـِـينـ أـمـَـذـُـواـ لـِـمـ تـَـقـُـولـُـونـ مـَـاـ لـاـ تـَـفـُـعـلـُـونـ * كـَـبـُـرـ مـَـقـُـدـَـةـ عـِـنـدـ الـَّهـ أـنـ تـَـقـُـولـُـواـ مـَـاـ لـاـ تـَـفـُـعـلـُـونـ) (الصف/ 2-3). ▶

* أستاذ فلسفة

المصدر: كتاب الأخلاق في الإسلام والفلسفة القديمة